الفصل الثانى

الحروب الأهلية وسياسة المتصارعين ازاء المسيحية

لدا لفترة ما أن نظام « الحكومة الرباعية » الذى اقامه دقلديانوس قد أضحى وطيد الأركان ، ولكن هذا النظام لم يكن راجعا فى ثباته الى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعا الى سطوة الامبراطور التى وضعت حدا لطموح شركائه(١) ، ولم يستطع ذهن دقلديانس أن يتصور أنه اذاكان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه امبراطورا لهم وسيدا ، حيث كان ولى نعمتهم ، فلقد كان من الصعب على أحدهم أن يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس ـ طالما كانوا جميعا شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والاخر لقب القيصر · فما أن القى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد أن تخلى دقلديانوس وزميله ماكسيميان Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح أولئك الرفاق وصراعهم ، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عددا ·

لا أن تخلى الرفيقان عن السلطة الامبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius الى مرتبة لأوغسطس بدلا منهما ، أولهما فى الشرق ، وثانيهما فى الغرب · ولم يدع كاتبنا لاكتانتيوس هذه الحادثة تمر دون أن يعيد الى الأذهان من جديد صورة ذلك النفوذ القوى الذى طالما نبه اليه متمثلا فى جاليريوس ، وهذا الضعف والانقياد باديا فى دقلديانوس ، فيدخل فى روعنا أن اعتزال كل من دقلديانوس وماكسيميان تم برغبة جاليرويوس وتهديده ، ويخبرنا أن الأخير انتهز فرصة المرض الذى الم بالامبراطور والح عليه بالاعتزال

---

(١) Cary, op. cit. p. 732.

وضرب له مثلا الامبراطور نيرفا (٩٦ ـ ٩٨) ولكن الامبراطور راح يستعطف قيصره مبديا استعداده التام لأن يخلع عليه وزميله قسطنطيوس لقب الأوغسطس اذا كانا يرغبان فى ذلك(٢) · غير أن جاليريوس كان يطمع فى أن يحمل لقب « الامبراطور » وحده ، فرفض العرض ، وتعلل بأن النظام الذى أوجده الامبراطور لابد أن يبقى حرما لا ينتهك ، ولكنه فى نفس الوقت جهر للامبراطور بما يختلج فى نفسه من مشاعر كامنة ، قائلا انه لم يعد يحتمل البقاء فى مرتبة أدنى · وأنه قد ظل لفترة طويلة خلت كما لو كان منفيا فى الليريا وشواطىء الدانوب ، يجاهد دوما البرابرة ، بينما الاخرون يحكمون مناطق أكثر اتساعا وأفضل مدنية(٣) · ولما كان دقلديانوس قد أتته رسالة من ماكسيميان تنبئه أن جاليريوس قد حشد جيشا كبيرا ينتظر تلقى أوامر سيده ، وأنه قد استحثه على التخلى عن السلطة الامبراطورية ، ثم ها هو دقلديانوس نفسه يسمع الان قالة قيصره ، أدرك أن هذا قد أعد للأمر عدته ، فانفجر باكيا ـ ذلك الرجل الذى غدا بلا روح ـ وخاطب ، والدموع تنهمر من مآقيه ، جاليريوس قائلا : ليكن ما تريد »(٤) ·

ولكن يبدو أن دقلديانوس قد أدرك بعد ما أصابه من مرض أن حالته الصحية لم تعد تسمح له بتحمل أعباء الحكم فترة أخرى ، ففضل الاعتزال تاركا أعباء السلطة لخلفائه ، وحتى لا يحدث نزاع ـ كما توهم ـ بين أولئك استحث زميله ماكسيميان على أن يحذو حذوه ، ومما يرجح ما نذهب اليه ما يذكره لاكتانتيوس نفسه(٥) من أن الامبراطور بعد أن دهمه المرض داخله شعور بأنه لم يعد يقوى على مهام الحكم ، ويحتمل أيضا أن يكون دقلديانوس قد نظر الى مرضه كنوع من انتقام السماء ابتلاه به اله المسيحيين ، ومن ثم أراد أن لا يتحمل أكثر من ذلك مسئولية الاضطهاد(٦) ·

على أية حال فقد ارتقى جاليريوس وقسطنطيوس الى مرتبة الامبراطور ،

---

(٢) LACT. mort. pers. 18.
(٣) Id.
(٤) Id.
(٥) Ibid. 17.
(٦) Jones, Constantine, p. 56.

أولهما فى الشرق والثانى فى الغرب ، وأصبحت المشكلة الآن تنحصر فى اختيار القيصرين الجديدين ، ولقد كان هناك على الأقل اعتقاد بأن قسطنطين بن قسطنطيوس الذى كان يقيم الآن فى البلاط الامبراطورى بنيقوميديا سوف يكون أحد هذين القيصرين ، وكان هناك من الأسباب ما يبرر هذا الاعتقاد ، فقد كان ابنا لأوغسطس الغرب(٧) ، وكان قد أبدى نشاطا عسكريا على الدانوب(٨) واشترك فى الحملة التى قادها دقلديانوس الى مصر(٩) . غير أنه لاقسطنطين ولا حتى ماكسنتيوس Maxentius بن ماكسيميان كانا بين المرشحين .

ومرة أخرى يأخذنا لاكتانتيوس ليطلعنا على ما يجرى وراء أستار القصر الامبراطورى فى نيقوميديا ، فيرسم صورة بزت ما قبلها ، تكشف عن مدى سطوة جاليريوس واستسلام دقلديانوس ، وفى حوار رائع بديع ، وبأسلوب ساخر يرسم على الشفاه ابتسامة رقيقة ، ويبعث فى النفس حسرة على ذلك الامبراطور المغلوب على أمره ! يوضح كاتبنا الطريقة التى تم بها اختيار القيصرين الجديدين فيقول :

« والآن .. ما الذى يجب علينا ان نفعله ؟ « قال جاليريوس : « بالنسبة لماكسنتيوس فانه لا يستحق هذا المنصب ، فها هو بعد رجل عادى ومع ذلك يعاملنى باحتقار ، فكيف به اذا ما غدا صاحب جاه ؟ ـ ولكن قسطنطين محبوب ، ويتمتع بفضائل عديدة ـ وليكن ذلك . الا اذا كانت رغباتى وقراراتى سف لا يقام لها وزن ، وأن هؤلاء الرجال يجب ان يعينوا بناء على اقتراحى ، وسوف أختار أولئك الذين لا يخشون أحدا غيرى ، ولا يحركون ساكنا الا بايعاز منى ـ اذن .. فمن يا ترى يكون أولئك الرجال ؟ ـ سفروس Severus **ـ ؟ ! ذلك الداعر الذى يواصل ليله بنهاره ولا يكاد يفيق ؟ ـ انه يستحق المنصب . لقد أثبت جدارته كصراف ومورد للجيش ، وقد بعثت به فعلا ليتسلم السلطة من يد ماكسيميان ـ حسنا ،**

---

(٧) C.M.H. I, p. 3.

(٨) Jones, Constantine, p. 57.

(٩) EVSEB, Vita Const. I, 19.

لا اعتراض . وأى شخص آخر تفضل ؟ ـ هو ذاك . قالهـا جاليريوس مشيرا الى دازا Daza ذلك الرجل القصير النصف بربرى وقد خلع عليه جاليرويوس مؤخرا جزءا من اسـمه(١٠) ودعاه ماكسيمين Maximinus فاعاد بذلك نفس ما حدث عندما أنعم عليه دقلديانوس سابقا بلقب ماكسيمين . من تراه يكون ذلك الذى ترشحه ؟ ـ انه أحـد أقربائى(١١) ـ يا للحسرة . تأوه بها دقلديانوس ، ثم أردف قائلا ، ولكنك أخترت أناسا لا يصلحون لهذه المهام الجسام . ـ انى أثق فيهم(١٢) » .

وفى حفـل رسمى راح دقلديانوس وجاليريوس يعلنـان للحاضرين ما تم عليه اتفاقهما ، ويصور لاكتانتيوس تلك اللهفـة التى كانت فى أعين الناس بادية ، ونظراتهم المركزة على قسطنطين ، فقد كان الجميع يتوقعون اختياره ، ولكن دقلديانوس وقف يخاطبهم جميعا والعبرات تنحدر من عينيه مبينا لهم أنه شعر بالحاجة الى الراحة بعد هذا العناء الطويل ، وأنه يتخلى عن الحكم ليضعه فى يد قوية أمينـة تصونه وترعاه ، ووسط هـذا الجو « الدرامى » المتوتر أعلن دقلديانوس اختيـار سفروس وماكسيمين دازا ، وعقدت الدهشة السنة الجميع ، واعتقدوا أن قسطنطين لابد وان يكون قد حمل لقب ماكسيمين ، ولكن جاليريوس أزاح قسطنطين بيـده وقدم للناس دازا ولم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفه خـوفا من جاليريوس ، وهكذا تم اختيار القيصرين الجديدين(١٣) .

ويعلق لاكتانتيوس على ذلك بقـوله : « أما دقلديانوس فقـد مر عبر نيقوميديا أشبه بجندى سرح من الخدمة وطرد الى بلده ، بينما غدا دازا ، راعى الغنم ، قائدا للجيش(١٤) .

ولما كنا قد عرضنا ـ فى الفصل الأول ـ لوجهة نظرنا فى الموقف الذى اتخـذه انفسـه لاكتانتيوس ازاء دقلديانوس وجاليريوس ، فاننا نضيف أن

---

(١٠) Galerius Valerius Maximinus.
(١١) Gibbon, op. cit. I, 327.
(١٢) LACT. mort. pers. 18.
(١٣) LACT. mort. pers. 19.
(١٤) Id.

جاليريوس كان شديد الطموح · ولما كان زوجا لابنة دقلديانوس وقيصرا له طيلة سنوات عديدة ، فقد كان يتمتع لديه بنفوذ كبير ، ومن ثم استطاع أن يستميله الى تعيين هذين القيصرين ، وقد كانا خير من يحققا أطماع جاليريوس وطموحه(١٥) ·

ولفترة قصيرة جدا اتخذت « الحكومة الرباعية الثانية » شكلها ، فأخذ جاليريوس أوغسطس الشرق أقاليم Pontica, Asiana, Thrace, Moesia بينما أضاف قسطنطيوس ـ أوغسطس الغرب ـ اسبانيا الى أقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا ، أما سفروس فقد خصصت له ايطاليا وأفريقيا وبانونيا Parnonia ، على حين حكم ماكسيمين المناطق الشرقية (مصر وسوريا)(١٦) · وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة أرباع الامبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمين الاضافة الى دائرة نفوذه · وكانت الأحلام تداعب خياله عن الانفراد بحكم الامبراطورية كلها بلا منازع ، ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس(١٧) ، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الامبراطورية تحت سلطانه وحده ، هما اختيار قسطنطين خلفا لأبيه فى الغرب ، والمناداة بماكسنتيوس امبراطورا فى روما سنة ٣٠٦ ·

ذلك أن قسطنطيوس بعد أن غدا أوغسطس الغرب طلب الى جاليريوس أن يبعث اليه بابنه قسطنطين الذى كان رهين البلاط الامبراطورى فى نيقوميديا منذ أيام دقلديانوس · غير أن جاليريوس كان يتخوف من ذلك ، فقد كان لديه آمال كبار يعلقها على وفاة أوغسطس الغرب ومن ثم كان يخشى لحاق قسطنطين بوالده خوفا من أن يخلفه فى منصبه ، ولهذا فقد راح يسوف فى الأمر ويتلكأ فى اجابة مطلب قسطنطيوس ، غير أنه أمام الحاح الأخير سمح للابن بالرحيل ، ولكن لاكتانتيوس كعادته يسوق رحيل قسطنطين فى صورة هروب جن معه جنون جاليريوس ، فأمر فرسانه

---

(١٥) Gibbon, op. cit. I, p. 427.
(١٦) Jones, Constantine, p. 56.
(١٧) LACT. mort. pers. 20.

باللحاق به واعادته ثانيا دون جدوى ، « فقد كانت ترعاه عناية الرب »(١٨) ٠

أدرك قسطنطين والده فى ميناء بولونى Boulogne وهو يستعد للعبور الى بريطانيا(١٩) ، وما أن أقر قسطنطيوس الأمور فى بريطانيا حتى عاد الى يورك Eburacumوهناك أدركته منيته فى ٢٥ يوليو سنة ٣٠٦(٢٠)٠ وبدا لبرهة وجيزة أن آمال جاليريوس قد أوضحت حقيقة ٠ ولكن ذلك لم يحدث(٢١) ، ففى نفس اليوم أعلنت فيالق قسطنطيوس اختيارها لابنه قسطنطين أوغسطسا(٢٢) ويجمع كل من يوساب(٢٣) ولاكتانتيوس(٢٤) على أن قسطنطين أبى أن يحمل هذا اللقب آنئذ ، وراح يحاول تدعيم مركزه لما كان يعلمه من قوة جاليريوس لذى أصبح الآن الامبراطور السيد(٢٥) ٠ فأرسل اليه قسطنطين يطلب الاعتراف به ، وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظا لما اعتبره اغتصابا للسلطة من جانب قسطنطين ، الا انه آثر قبول سياسة الأمر الواقع ٠ فاعترف بقسطنطين قيصرا وليس امبراطورا ، بينما انعم على سفروس بلقب الامبراطور ، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية الى الرابعة(٢٦) وهكذا ـ ولزمن يسير ـ عادت الحكومة الرباعية من جديد ، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أوغسطس ، بينما

---

(١٨) يقول لاكتانتيوس : « ذات مساء ، وأمام الحاح قسطنطيوس ورسائله المتكررة لم يجد جاليريوس بدا من الموافقة على سفر قسطنطين ، فأذن له بذلك على أن يعطيه فى الصباح الرسائل الامبراطورية الخاصة بذلك ٠ ولكنه كان يضمر الشر فى نفسه ، عله يجد سببا يمنع به قسطنطين من الرحيل ، أو يأمر سفروس بالقبض عليه أثناء الطريق ، غير أن قسطنطين أدرك ما يجول بخاطر جاليريوس ، فما أن آوى الامبراطور الى فراشه بعد العشاء حتى انتهز قسطنطين الفرصة وهرب ٠ وفى اليوم التالى ، وعند الظهيرة استدعى جاليريوس قسطنطين ولكنه علم بهروبه ، فجن جنونه ، وأمر بالبحث عن واللحاق به ،ولكن دون جدوى ، فلم يستطع جاليريوس الا بشق الأنفس أن يحبس الدموع » ٠ أنظر : LACT. mort. pers. 24.

(١٩) EVSEB. Vita Const. I, 21.

(٢٠) Jones, Constantine, p. 58.

(٢١) Cary, op. cit. p. 372.

(٢٢) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.

(٢٣) EVSEB. vita Const. I, 22; hist. eccl. VIII, 13.

(٢٤) LACT. mort. pers. 25.

(٢٥) Jones, Constantine, p. 59.

(٢٦) LACT. mort. pers. 25.

استحوذ كل من ماكسيمين وقسطنطين على مرتبة القيصر · ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب « المتواضع » انتظارا لما تأتى به الأيام(٢٧) ·

غير أن ثورة شبت فى نفس العام (٣٠٦) فى روما ، قام بها الحرس البريتورى ، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميان امبراطورا فى ٢٨ أكتوبر ،وبدا أن ايطاليا كلها قد أضحت فى قبضة ذلك المغتصب(٢٨) ، وقد سعى ماكسنتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به ، وسمى نفسه على عملته عندئذ « الأمير الذى لا يقهر »(٢٩) · وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع ، وملأ الكره قلبه نحو ماكسنتيوس ، الذى كان زوجا لابنته ، ولما لم يكن هناك مكان لقيصر ثالث ، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب(٣٠) · وترجع هذه الثورة التى أتت بماكسنتيوس للعرش الى ما أقدم عليه سفروس من اجراء تعداد للسكان فى ايطاليا وروما مما سبب سخطا وتذمرا بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب(٣١) · وان كان لاكتانتيوس يحمل مسئولية ما أقدم عليه سفروس(٣٢) ، وازاء ذلك أرسل جاليريوس الى سفروس يستحثه على استعادة سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة ماكسنتيوس ، ووضع تحت امرته ذلك الجيش الذى كان ماكسيميان يرأسه من قبل(٣٣) وكان على ماكسنتيوس أن يستعد لمواجهة هذا التحدى ، فبعث الى أبيه ماكسيميان يطلب اليه العون ، محييا اياه ثانية بلقب « الأوغسطس » ، واهتبل الأب ، الذى كان قد تخلى كارها عن السلطة مع دقلديغوس ، الفرصة وعاد من جديد الى ارتداء العباءة الامبراطورية(٣٤)· وهكذا أصبح فى الامبراطورية أباطرة أربعة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميان ، وقيصران هما ماكسيمين وقسطنطين ·

---

(٢٧) Jones, Constantine, p. 59.
(٢٨) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(٢٩) Jones, Constantine, p. 59.
(٣٠) LACT. mort. pers. 26.
(٣١) Jones, Constantine, p. 59.
(٣٢) LACT. mort. pers. 26.
(٣٣) Id.
(٣٤) LACT. mort. pers. 26.

تقدم سفروس بقواته ميمما شطر روما ، وكان عليه أن يواجه خصما عنيدا ، فماكسنتيوس كان قد أعلن نفسه أوغسطسا ، وضم اليـــه فريقيا واسبانيا ، وضمن أيضا تغضيد والده · وسرعان ما فعل اسم ماكسيميان فعل السحر ، لا فى نفوس جنود ولده فحسب ، بل فى أفئدة قوات سفروس نفسه(٣٥) ، فما لبثت هـــذه القـــوات ـ التى كان معظمها تحت قيـــادة ماكسيميان من قبـــل ، أن تخلت عن سفروس وانضمت الى أعدائه(٣٦) ، فلم يجد سفروس أمامه بدا من التحصن فى رافنا Ravenna غير أن ذلك لم يحمه من القتل(٣٧) ·

وقد خشى ماكسيميان ، الذى كان يعـلم مزاج جاليريوس الجـمح ، مغبة ذلك الأمر ، وجالت بخاطرة أفكار هيـأت له أن جاليريوس لابـــ وأن يمتلىء حنقا لقتـــل سفروس وانه لا يلبث حتى يسير الى ايطاليا فى قوات ضخمة لقتاله ، ومن ثم شرع يعد للأمر عدته(٣٨) ·

كان على ماكسيميان أن يبحث عن حليف جديد يقف الى جـواره فى صراعه المرتقب مع جاليريوس ، ولا يمكن أن يكون هـذا الحليف بـالطبع ماكسيمين قيصر الشرق ، فقد كان تابعا أمينا لجاليريوس ، ولذلك اتجه طبيعيا الى قيصر الغرب قسطنطين ، فارتحل ماكسيميان الى غالة ليـرض على القيصر صداقته ، وليقدم له عربونا على هـــذه الصـــداقة يد ابنته فاوستا Fausta (٣٩) ولقب الأوغسطس(٤٠) · وقد كانت لحظة ـرجة تلك التى كان يمر بها قسطنطين ، فجاليريوس هـو الاوغسطس الشـرعى السيد الآن للامبراطورية ، وهو الذى منحه لقب القيصر قبل ذلك · ـكن قسطنطين كان يعلم أيضا أن جاليريوس وافق على اعطائه لقب القيصر مرغما أمام الأمر الواقع ، وأنه ليس من المستبعد أن يقدم جاليريوس على سحبه منه ثانية عندما تواتيه الفرصة ، ثم ها هو ماكسيميان ، الذى كان

---

(٣٥) Jones, Constantine, p. 60.
(٣٦) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(٣٧) LACT. mort. pers. 26.
(٣٨) LACT. mort. pers. 27.
(٣٩) Id
(٤٠) Gibbon, op cit. I, p. 437.

ادعاؤه للسلطة الآن غير شرعى · الا أنه يحمل قانونا لقب الاوغسطس ، يعرض عليه لقب الأوغسطس ويد ابنته · ولقد قبل قسطنطين العرض(٤١) ، ومع أنه لم يقدم على عمل عدائى جدى ضد جاليريوس ، الا أن انضمامه علانية الى جانب ماكسيميان يعد تحديا صريحا له ·

جهز جاليريوس قواته ، وتقدم الى ايطاليا مواليا وجهه روما ، وقد عزم على أن يؤدب السناتو ، وأن يضع تحت السيف أولئك الثائرين الرومان(٤٢) · ولكن حملة جاليريوس لم تكن أسعد حظا من تلك التى شنها سفروس ، فماكسيميان كان قد حصن روما تحصينا قويا ، كما أن قوات جاليريوس لم تكن كافية لحصار المدينة(٤٣) ، ولما كان جاليريوس يشك فى ولاء قواته(٤٤) فقد أسرع بالانسحاب ثانية دون انتظام ، وخوفا من أن يلحق به عدوه ، فقد أباح لجنوده أن يخربوا كل المناطق التى يمرون بها أثناء تراجعهم ، فعم الدمار بذلك كل أراضى ايطاليا الشمالية(٤٥) · هكذا فشلت حملة جاليريوس · وكان من نتيجة هذا الفشل أن دار الصراع الآن سافرا بين ماكسيميان وابنه ماكسنتيوس · فبينما أراد الأب أن ينفرد بالسلطة دون ابنه ، رفض الولد أن يشاركه أبوه السلطان ، وعلى الرغم من أن ماكسيميان أهان ولده أمام جحافل الجنود ، ومزق عنه رداءه الامبراطورى ، الا أن الجنود أيدت ماكسنتيوس وأجبرت ذلك الشيخ الفانى على الفرار خارج روما(٤٦) · فلم يجد ملجأ له الا صهره قسطنطين فارتحل الى غاله ثانية ، وأكرم قسطنطين وفادته ·

يحتمل أن يكون هذا الشاب الذى كشفت بعد ذلك الأحداث عن طموح الفياض ، قد رأى فى ماكسيميان ورقة رابحة يستغلها لتحقيق أغراضه التى كان يسعى اليها فى حذر ، فماكسنتيوس كان قد استولى على اسبانيا التى كانت قد خضعت لقسطنطيوس قبل وفاته سنة ٣٠٦ ، ثم

(٤١ Jones, Constantine, p. 60.
(٤٢ LACT. mort. pers. 27.
(٤٣ Id.
(٤٤ Jones, Constantine, p. 61.
(٤٥ LACT. mort. pers. 27.
(٤٦ Ibid. 28.

ها هو يسيطر الان على ايطاليا وأفريقيا ، ولابد أن يكون قسطنطين قد أدرك أن فى اتساع نفوذ ماكسنتيوس تهديدا خطيرا لسلطانه ، ومن ثم راح يسعى لتقوية مركزه ، ولئن كان ماكسيميان حليفا خالى الوفاض ، الا أن قسطنطين قد رأى على الرغم من ذلك أن يفيد منه فى صراعه المحتوم ضد ماكسنتيوس · ولئن كانت الأحداث قد خيبت فأل قسطنطين حيث تمرد عليه ماكسيميان نفسه بعد ذلك الا أنه بسياسته هذه قد ضمن عدم تأييد الأب لابنه ، أو تحالفهما معا ضده ·

شغر منصب « الأوغسطس الثانى » الشرعى بمقتل سفروس ، فعين جاليريوس رفيق السلاح ليكين Licinius أوغسطسا ، وعهد اليه باقليم بانونيا Pannonia حتى يمكن استعادة الأقاليم المغتصبة من قبضة ماكسنتيوس ، تم ذلك فى مؤتمر عقد فى سنة ٣٠٧(٤٧) وحضره دقلديانوس ، الذى كان يعيش فى عزلة منذ تخليه عن منصبه ، وماكسيميان الذى كان قد ارتحل من غالة ، وجاليريوس ، ولكن هذه الخطوة من جانب الأخير لم تؤد الا الى امتعاض ماكسيمين الذى رأى فى ارتقاء ليكين مرة واحدة الى منصب الامبراطور ، اهانة له ، فطلب الى جاليريوس منحه لقب الأوغسطس · ولكن جاليريوس حاول ايجاد حل وسط لهذه الفرضى التى أخذت تعبث بالامبراطورية ، فأنعم على القيصرين ماكسيمين وقسطنطين بلقب « أبناء الأباطرة »(٤٨) · غير أن ماكسيمين لم يقنع بذلك ، كما أن قسطنطين الذى كان يحمل لقب الأوغسطس منذ منحه اياه ماكسيميان ، شارك ماكسيمين رفضه ، فلم يجد جاليريوس بدا من الاذعان لذلك ، فمنحهما سنة ٣٠٨ لقب الأوغسطس(٤٩) ، وهكذا أصبح فى الامبراطورية ستة أباطرة هم جاليريوس ، ليكين ، ماكسيمين ، قسطنطين ، ماكسنتيوس ، ماكسيميان ، لكل منهم اقليمه الذى يحكمه صغر هذا الاقليم أو كبر ، الا ماكسيمن فقد كان امبراطورا بلا أرض ، وأميرا بلا ناس ، ولم يجد أمامه ثانية الا الذهاب الى غالة حيث صهره قسطنطين ، ولكنه

---

(٤٧) Burckhardt, op. cit. 265.
(٤٨) LACT. mort. pers. 32.
(٤٩) Id.

فى هذه المرة قد تأبط شرا ، فقد جاء وفى نيته الاستيلاء على السلطة من صهره(٥٠) · وظل يتحين الفرصة لبلوغ مأربه ، وعلى الرغم من أن قسطنطين وزوجته فاوستا لقيا ماكسيميان بترحاب واحترام(٥١) الا انه كان يدرك فى قرارة نفسه أنه لم يعد صاحب فضل على قسطنطين بعد أن اصبح هذا امبراطورا شرعيا بعد قرار جاليريوس ·

وقد واتت ماكسيميان الفرصة فى ربيع سنة ٣١٠ عندما ثارت بعض قبائل الفرنجة التى كانت تحتل الضفة الشرقية للراين قبالة كولونىCologne ، ويروى لاكتانتيوس(٥٢) هذه الأحداث فى شكل خدعة من جانب ماكسيميان أراد بها القضاء على صهره ، فقد نصحه ألا يصطحب معه عددا كبيرا من جنوده بحجة أن قوات قليلة العدد كافية لاخماد هذا التمرد ، وكان يريد بذلك تحقيق هدفين ، هزيمة قسطنطين ومقتله على يد تلك القبائل الثائرة والاستفادة بالجزء الثانى من جيش قسطنطين لتحقيق أغراضه فى استعادة منصبه الامبراطورى ، ويمضى كاتبنا قائلا ان قسطنطين قد أصغى طائعا الى هذه النصيحة دون أن يتسرب الشك الى نفسه فى نيات صهره « الوفى » ، هذا بالاضافة الى أن قسطنطين كان يعتقد أن لماكسيميان من الخبرة العسكرية والتجربة ما يفوق تجربته وخبرته ·

غير أن قصة على هذا النحو لايمكن قبولها على علاتها ، فقسطنطين لم يكن غافلا عن طموح ماكسيميان ورغبته الجامحة فى استعادة سلطانه · وكان يدرك أن ماكسيميان ما جاء هذه المرة ، الا وقد اعتزم أمرا بعد أن فوت عليه جاليريوس ودقلديانوس الفرصة فى مؤتمر عام ٣٠٧ ، كما أن قسطنطين لم يكن يأحب لماكسيميان من ابنه ماكسنتيوس الذى حاول والده أن ينتزع منه السلطة قبل ذلك ، أضف الى هذا أن ذكاء قسطنطين وخبرته العسكرية مع الجرمان على شواطىء الدانوب على عهد دقلديانوس · والحملات العسكرية التى خاضها عقب وفاة أبيه لتثبيت سلطانه فى غرب الامبراطورية

---

(٥٠) Ibid. 29.
(٥١) Gibbon op. cit. I, 441.
(٥٢) LACT. mort. pers. 29.

قد أعطته صورة واضحة عن مدى قوة هذه القبائل ، ومايجب عليه اتخاذه ازاءها من احتياطات واستعدادات عسكرية ٠

مكث ماكسيميان غير بعيد عقب ارتحال قسطنطين بقواته الى ضفاف الراين ، ثم أعلن فجأة عن ارتدائه العباءة الامبراطورية ، واستولى على الخزانة العامة ، ونفح الحامية التى خلفها قسطنطين وراءه كثيرا من المال ، ولما تأكد لديه أن قسطنطين قد قارب كولونى أشاع نبأ وفاته(٥٣) ، غير أن ماكسيميان أخطأ فى تقدير قوة خصمه ، ومدى ولاء الجنود له ، فما أن وصلت الأنباء الى كولونى حتى عاد قسطنطين مسرعا عن طريق السا ون Saone والرون Rhone وحط رحاله أمام أرل Arles حيث كان ماكسيميان(٥٤) ولما لم يكن هذا قد أكمل بعد استعداداته لتلقى هذا الهجوم المباغت فقد آثر الهروب الى مرسيليا Massilia ، ولكن قسطنطين لحق به ، ولم يلبث أهلوها أن أسلموا ماكسيميان ليد قسطنطين ، ولكن الأمير أبقى على حياته(٥٥) ٠

ومن المحتمل أن يكون قسطنطين قد أقدم على هذا العفو لعدة احتمالات نؤثرها ، فقد كان يوقن أن ماكسيميان قد أمسى رجلا لا يثنى بأسه بعد أن تحطمت كل آماله ، وهزم هذه الهزيمة الأخيرة ، وأنه بهذا التسامى والترفع عن قتله يستطيع أن يمن عليه بهذه اليد العليا مستغلا اياه ، كما أسلفنا ورقة رابحة فى صراع حتمى ضد ماكسنتيوس ، يضاف الى ذلك أن قسطنطين لم يكن يريد فى هذه الظروف التى يمر بها ، محاولا تحطيد سلطاته فى المناطق الخاضعة له ، فتح باب لصراع ، أو على الأقل تجله مع ماكسنتيوس ، ومن ثم أراد أن يحرم ماكسنتيوس فرصة قد يتخذها ذريعة لشن الهجوم عليه اذا ما أقدم على قتل والده كما حدث بعد ذلك عندما طالب ماكسنتيوس بثأر أبيه من قسطنطين ، وان لم يكن أباه يعنيه قدر ما كان يعنيه تحطيم قسطنطين ٠

وفى صورة درامية عنيفة ينهى لاكتانتيوس حياة ماكسيميان ، فيذكر

---

(٥٣) LACT. mort. pers. 29.
(٥٤) Gibbon, op. cit. I, p. 442.
(٥٥) LACT. mort. pers. 29.

أنه تنكـر لهذا المعـروف الذى أسداه اليه قسطنطين وراح يحيك المؤامرات ضـده ، وحاول أن يجـر معه ابنته فاوستا فى هذا السبيل ، ولكنها افضت الى زوجهـا بذلك ، وتم اكتشاف المؤامرة واحباطها فى مهـدها وأعـدم ماكسيميان سنة ٣١٠(٥٦) · ولعل هـذه الصورة التى رسمها لاكتانتيوس عن ماكسيميان قد أوحت الى أحـد المؤرخين المحدثين الى القول بأن الرواية الشائعة عن المعاملة السيئة التى يلقاها الزوج من أم زوجته لا يمكن أن تقارن بما فعله ماكسيميان ازاء زوج ابنته(٥٧) ·

ولم يكد يمضى على هذه الأحـداث عام حتى مات جاليريوس (مايو ٣١١) بعد أن دهمه المرض فترة طويلة ، فأعطى موته اشارة البدء فى ذلك الصـراع المتوقع بين الأباطرة الأربعـة ، فقسطنطين كان يسـود غالة وبريطانيا ، بينما كان ماكسنتيوس يحكم ايطاليا واسبانيا وأفريقيا ، أماليكين فخضعت له اليريا وبلاد الونان وتراقيا ، على حين اختص ماكسيمين بكل ما يقع وراء البسفور من الاراضى الآسيوية ومصر(٥٨) وقبل أن نشهد هذا الصـراع العنيف يجـدر بنا أن نتوقف بعض الشىء لنتعرف على سياسة جاليريوس ازاء المسيحية ·

كان جاليريوس يكن للمسيحية والمسيحيين كبير عـداء ، منـذ كان قيصـرا على عهـد الامبراطور دقلديانوس ، فلما اعتلى عرش الامبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه فى الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ماكسيمين فى سوريا وفلسطين

---

(٥٦) تتلخص قصة المؤامرة التى يرويها لاكتانتيوس فى أن ماكسيميان طلب الى ابنته فاوستا أن تترك باب غرفة زوجها مفتوحا أثناء نومه حتى يتمكن من الدخول واغتيال قسطنطين بيده · وقد تظاهرت فاوستا بالموافقة ثم أنبأت زوجها بالأمر ، فاتخذ من الاحتياطات ما يكفى لوقوع ماكسيميان فى يده · وقد استطاع هـذا الأخيـر أن يتخطى الحرس بايهامهم أنه يريد أن يفضى الى الامبراطور بحديث هام · ولكن قسطنطين استطاع أن يباغته بخاصة حرسه وأن يلقى عليـه القبض ويجبـره على شنق نفسـه · راجـع : LACT. mort. pers. 30 ·

(٥٧) Richardson, introduction to (EVSEB. Vitæ Contst.) Nicne and P.N.F. I, p. 413.

(٥٨) C.M.H. I, p. 3.

ومصـــر(٥٩) · ففى سنة ٣٠٦ أعـدت قوائم والزم الافراد جميعا بتقـديم القرابين ، وفى سنة ٣٠٨ صـدرت الأوامر لرؤساء المدن والموثقين الذين يحتفظون لديهم بسجلات التعـداد بتنفيـذ المرسوم السـابق الذكر(٦٠) ، وامعانا فى تنفيذ هـذا الأمر وضع الحراس على أبواب الحمامات العـامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات(٦١) ويصف لاكتانتيوس الحالة بقوله : « لقـــد راح جاليريوس يضطهد المسيحيين ويتفنن فى وسائل التعـــذيب والاضطهاد » ويعطى كاتبنا صورا فظيعة من هذا التعذيب الذى كان يلقاه المسيحيون(٦٢) · ولم يقتصر الأمر عـى هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه الى كل شئون الحيـاة ، « فتوقفت دواليب العمـل وأهملت سيادة القانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخطباء · لقد تملك حكومة جاليريوس مس من الشيطان(٦٣) · ومما زاد الطين بلة · تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينة ، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصون كل شىء ، الناس والشجر والدواب ، وأجبر العبيد على أن يفصحوا عما يخبئه أسيادهم ، وعذبت النساء حتى يعترفن بما لدى أزواجهن ، ولم يفلت من هذا العذاب شيخ ولا طفل ولم ينج منه مريض ولا ضعيف · لقـد كان ذلك أشبه شىء بما يفعله قائد منتصر بخصم دارت عليه الدائرة(٦٤) » · هذا حسب ما يرويه لاكتانتيوس وان كنا قـد نبهنا الى المبالغة التى تخالط كتابات مؤرخى الكنيسة فى هذا المجال بالذات ·

غير أن جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ أبريل سنة ٣١١ بمرسوم أصدره جاء فيه :

« كان من بين الأمـور التى رتبناها حفاظا عى الصالح العـام ما سبق أن أبدينا من الرغبـة فى رد الأوضاع الى الحالة اللائقـة بالقوانين القـديمة ونظام الرومان العام ، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم

---

(٥٩) Gibbon, op. cit. II, p. 140.
(٦٠) Jones, Later Roman Empire, I, p. 72.
(٦١) Jones, Constantine, p. 68.
(٦٢) LACT. mort. pers. 21.
(٦٣) LACT. mort. pers. 22.
(٦٤) Ibid. 23.

الى حالة طيبة ، لأنه قد تملكهم الكبر الى حد ، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق ان أسسها اجدادهم ، واقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم ، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة • ولما أصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم الى نظم الأقدمين خضع الكثيرون أمام التحدى • ولكن عددا ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت ، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة السماء ما يليق بها من عبادة ، فان محبتنا وما الفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا الى أن يشمل عفونا هذه الأمور ايضا ، حتى يعودوا الى مسحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها ، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام • وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه • وبناء على ذلك يجب عليهم أن يضرعوا لالههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب ، لكى يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام ، وحتى يحيوا فى ديارهم آمنين(٦٥) » •

وقد اذيع هذا المرسوم فى نيقوميديا ، وعلى اثره فتحت ابواب السجون وخرج منها من كان بها ، غير أن هذا المرسوم لم يؤت ثمرته المرجوة ، ذلك أن جاليريوس ما لبث أن مات بعد ذيوعه بأيام قلائل(٦٦) •

ويتفق لاكتانتيوس(٦٧) ويوساب(٦٨) على أن الباعث الأصلى لصدور هذا المرسوم هو ذلك المرض الذى دهم جاليريوس ، فاعتقد أن اله المسيحيين قد انتقم منه بهذا الداء • ومن ثم أراد أن يخفف عن رعاياه ويلات هذا الاضطهاد ، ولكن ذلك فى رأى الكاتبين لم ينج جاليريوس من انتقام الرب العدل !

ومما يلفت النظر فى هذا المرسوم أن ديباجته تضمنت صدوره عن الأباطرة الثلاثة جاليريوس وليكين وقسطنطين • فى الوقت الذى خلا فيه

---

(٦٥) EVSEB. hist. eccl VIII, 17; LACT. mort. pers. 34.
(٦٦) LACT. mort. pers. 35.
(٦٧) Ibid. 33.
(٦٨) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

من اسم ماكسيمين ، ولعل فيما يذكره يوساب فى تاريخه الكنسى(٦٩) خير تعليل لذلك ، حيث يذكر أن ماكسيمين لم يكن راغبا فى أن يضع اسمه على وثيقة هو عنها غير راض ، حيث استمر يمارس الاضطهاد مع المسيحيين · أما ماكسنتيوس فكان امبراطورا غير معترف به من أى من أولئك الأباطرة · ولا يعنى صدور المرسوم التزام الأباطرة الثلاثة جميعا به ، فلم تمهل الأيام جاليريوس حتى يشرف بنفسه على تنفيذه · أما الآخران فقد اختلفت سياستهما قبل المسيحيين ·

وعبارة المرسوم « على شريطة ألا يقوموا بعمل ضد النظام العام » قد تبدو غامضة وليس من السهل تحديد مدلولها حتى يمكن معرفة تلك الأعمال التى تتعارض والنظام العام ، ويبدو أن المرسوم لم يوضح ذلك اعتمادا على ما ذكره جاليريوس من أنه سينهى فى رسالة الى عماله ما يجب عليهم اتباعه ، ولكن هذه الرسالة ضاعت للأسف(٧٠) · وان كان يمكن القول أن هذه الأعمال تتلخص فى موقف المسيحيين العام ازاء الدولة على النحو الذى عرضنا له فى الفصل الأول ·

على أن المرسوم فى حد ذاته يعد اعترافا صريحا من جانب جاليريوس بما أقدم عليه من تحديات للمسيحيين ، وفى نفس الوقت يعتبر دليلا واضحا على فشل سياسة الاضطهاد التى سار عليها ، وذلك يبين مما جاء فى المرسوم من أن كثيرين رفضوا الاذعان لأوامر الامبراطور ، ولما كانت هذه السياسة قد استمرت قرابة ثمان سنوات (٣٠٣ ـ ٣١١) دون أن يبدو لها فى الأفق أى بادرة من بوادر النجاح ، فقد أدرك جاليريوس مدى خطورة هذه السياسة والنتائج المترتبة عليها بالنسبة لقوة الامبراطورية ووحدتها ، خاصة اذا علمنا أن جاليريوس قد ركز ضرباته ضد أولئك الجنود المسيحيين فى الجيش(٧١) ·

ويقول المؤرخ جيبون(٧٢) تعليقا على هذا المرسوم « لا يحسن بنا أن

---

(٦٩) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(٧٠) Ricahrdson, op. cit. n. 9 p. 840.
(٧١) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.
(٧٢) Gibbon, op cit. II, p. 142.

نبحث عن حقيقة الشخصيات التاريخية أو الدوافع الكامنة من منطوق المراسيم والبيانات ، ولكن ما دامت هذه كلمات امبراطور يحتضر فانه يجوز لنا قبولها دليلا على صدقه وحسن نيته » ٠

صدر هذا المرسوم فى ٣٠ أبريل ٣١١ ، ومات جاليريوس فى مايو بعد أن تمكن منه المرض ، ولكن يوساب يزعم أن جاليريوس قد خفت عنه شيئا حدة المرض فعاود اضطهاد المسيحيين قبل أن تعاجله منيته(٧٣) ٠ خلاصة القول ان مرسوم ٣١١ لم ينفذ تماما فى كل أرجاء الامبراطورية نتيجة الأحداث التى أعقبت وفاة جاليريوس مباشرة ٠

فما أن تلقى ماكسيمين نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه فى الشرق ، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالى الى صفه فأمر بالغاء الضرائب التى كان الامبراطور الراحل قد فرضها ٠ هذا بينما تباطأ ليكين فى أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدونى(٧٤) ، وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الامبراطورين الطامعين ، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنمة ، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطىء البسفور ، ولكن الامبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت ، فتباعدت الحرب بينهما الى أجل آت لا ريب فيه ، ولما اعتقد ماكسيمين أن كل شىء قد انتهى عاد أدراجه الى نيقوميديا(٧٥) ٠

أما فى الغرب فكان الزمن يجرى سراعا يعجل صراعا محتوما بين قسطنطين وماكسنتيوس ، فقد وجد هذا الابن العاق ، الذى رفض مرارا أن ينبل والده شريكا له فى الحكم ، فى مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لاشعال نيران الحرب ضده ، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ماكسنتيوس الذى غدا فجأة ابنا بارا بوالده(٧٦) ٠

وهكذا كان طموح الأباطرة الأربعة وأهواؤهم سببا فى اذكاء نيران

---

(٧٣) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.
(٧٤) LACT. mort. pers. 36.
(٧٥) Id.
(٧٦) Ibid. 43.

حرب اهلية فى الامبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة . وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره . فامبراطورا الشرق ليكين وماكسيمين يتربص كل منهما بصاحبه الدوائر لينفرد بحكم الجزء الشرقى ، وهكذا كان امبراطورا الغرب قسطنطين وماكسنتيوس . وأملت طبيعة الصراع على كل منهم أن يوطد صداقته مع الحليف الأبعد ضد جاره القريب ، فتقفز قسطنطين عبر ايطاليا وماكسنتيوس ليتحالف مع ليكين ، بينما خطا ماكسيمين خطوة واسعة فوق الليريا وتراقيا وليكين ليصل الى ماكسنتيوس، ذلك أن قسطنطين قد رحب بزواج أختهقسطنديا من ليكين(٧٧) ، وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التى ساورت ماكسيمين عن نيات الامبراطورين فى التحالف ضده ، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكين عقب وفاة جاليريوس ، فسارع الى ارسال سفرائه الى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس فرحب هذا بهم وأكرم وفادتهم ، واعتبر ذلك العرض عونا الهيا ، حيث كان على وشك الدخول فى حرب مع قسطنطين(٧٨) . وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين فى روما على بعض الرسائل التى كان ماكسيمين قد بعث بها الى حليفه(٧٩) .

فى صيف عام ٣١٢ كان ماكسنتيوس قد أعد للامر عدته ، واستطاع أن يقوى مركزه باعادة غزو افريقية(٨٠) ،وكانت هذه الولاية قد آلمها مطالب ماكسنتيوس التعسفية من الأموال والغلال ، فشبت فيها الثورة منادية بدوميتيوس اسكندر Domitius Alexander نائب الحاكم أوغسطسا ، فتمكن ماكسنتيوس من استعادتها ثانية(٨١) .

ويلقى مؤرخ الكنيسة يوساب مسألة طموح هؤلاء الأباطرة جانبا ، ويأخذنا فى خضم علل دينية وانسانية صرفة يقدمها سببا رئيسيا لهذا الصراع المحموم ، فقد كان ماكسنتيوس حسبما يروى يوساب(٨٢) يعتمد اعتمادا تاما على السحر والتنجيم ، بل ان ذلك كان أسوأ ما فيه على حد

---

(٧٧) LACT. mort. pers. 43.
(٧٨) Id; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.
(٧٩) LACT. mort. pers. 44.
(٨٠) Jones, Constantine, p. 74.
(٨١) Burckhardt, op. cit. p. 269.
(٨٢) EVSEB. vita Const. I, 36.

قوله ولم يكن يقيم لاله العالم الحق وزنا ، وكان بهـذا السحر والتنجيم يرفع سماء وأطفالا الى مهام المراكز ، ويخفض بهما أيضـا اقدر الرجال الى الدرك الأسفل ، ويضيف أن الحال فى روما آنئذ قـد بلغت من السـوء حدا لايمكن تقديره حيث عصفت بها الأوبئة وعضتها المجاعة(٨٣) والمذابح المروعة التى أنزلها ماكسنتيوس بأهل المدينة(٨٤) دون أن يقدم يوساب لذلك سببا هذا بينما كان قسطنطين فى قرارة نفسه يشفق على أهل روما(٨٥) ، وكان ينظر الى العالم باعتباره كلا متكاملا ، ويدرك أن على رأس هذا العالم تتربع مدينة للامبراطورية الرومانية خالدة ، غير أنها الان تقع تحت جناح العسف والجور لواحد من الطغاة ،ويأمل أن يتم تحرير الدينـة على يد أولئك الذين يحكمون مناطق أخرى من الامبراطورية ، فقـد كان يميل الى السلام ، ولكنه عندما رأى هؤلاء لا يقدمون شيئا لانقاذها ، أيقن أن الحياة ستكون له غاية التعاسة ، ومن ثم أعد نفسه لمواجهة هـذا الطاغية(٨٦) . ولم يكن الاعداد قاصرا على الناحيـة العسكرية ، بل راح قسطنطين يبحث جادا عن عون يأتيه من قوة تفوق قوة الجند والسلاح(٨٧) ، ولم يجد هذا ، القوة فى السحر والعرافة ، ولم يلمسها فى الأرباب التى ايها عبد الأباطرة السابقون ولها قربوا ، ولكن بصيرته هدته الى رب أبيه(٨٨) .

على هذا النحو يمهـد يوساب لقصته الشهيرة عن ميـل قسطنطين للمسيحية ،ويتغافل تماما عن الدوافع الحقيقية التى أدت الى قيام هـذا الصراع بين المتنافسين ، غاضا الطرف عن تلك الحقيقة الواضحة وهى أن قسطنطين لم يكن ليقنع على الاطلاق بأن يظل قابعا داخل جدران ذلك الموضع الصغير الذى وجد فيه فى جزء من الجزء الغربى للامبراطورية(٨٩) .

ذكر لاكتانتيوس أن قسطنطين قـد أقدم على طرح تماثيل ماكسيميان

---

(٨٣) Id.
(٨٤) EVSEB. vita Const. 33, 35.
(٨٥) EVSEB. hist. eccl. IX, 9.
(٨٦) EVSEB. vita Const. I, 26.
(٨٧) Latourette, Christianity, p. 91.
(٨٨) EVSEB. vita Const. I, 27.
(٨٩) Jones, Later Roman Empire, I, p. 79.

أرضا وازالة الصور التى كانت قد أقيمت له(٩٠) · فرد عليه ماكسنتيوس باجراء مشابه ، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن ايطاليا(٩١) · وهكذا أعلنت الحـــرب رسميا بين الامبراطورين · وكان لـــدى ماكسنتيوس من المشاة مائة وسبعون ألفا ، وثمانية عشـــر ألف فارس ، فاذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى أفريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فان ماكسنتيوس لم يتمكن الا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال ، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين ألفا من المشـــاة وثمانية آلاف على الخيل ، وان كان قد ترك جزءا من هـــذه القـــوات لتحمى جبهـــة الراين(٩٢) ·

وكانت خطة ماكسنتيوس تقـــوم على أساس الحيلولة دون تصال قوات قسطنطين وليـكين اذا ما حاولت قوات الأخير أن تنضم الى صهره ، فمركز عددا ضخما من قواته عند فيرونا Verona التى تعـد مدخل ممر برنر Brener ، غير أن قسطنطين عبـــر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط الى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة ، واستطاع رجاله الاستيلاء عليهـــا بعـــد أن أشعلوا النيران فى أبوابها ، وتسلقوا أسوارها ، وان كان قسطنطين قد أصدر أوامره باخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة(٩٣) وأمـام تورينو Augusta Taurinorum قوبل قسطنطين بخيالة عدوه ، فستطاع بمناورة عسكرية أن يوقع مذبحة مروعة بهـؤلاء الفرسان ، فتحت على أثرها تورينو أبوابهـــا للظافر ، ثم استسلمت على أثرها ميلانو ، فمكث فيها قسطنطين قليلا ثم واصل سيره ، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشا Brescia (Vrixia) فكانت الغلبة لجنوده(٩٤) ·

وكانت القوة الرئيسية لماكسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبى Ruricius Pompeianus ، وكان موقفه قويا الى حـــد كبير حيث

---

(٩٠) LACT. mort. pers. 42.
(٩١) Jones, Constantine, p. 74.
(٩٢) Jones, Constantine, p. 74.
(٩٣) Ibid. 75.
(٩٤) Richardson, op. cit. p. 416.

كانت المدينة محصنة ،وقد فرض قسطنطين عليهـا الحصار ، الا أن القائد استطاع الافلات خلسة ليعود من جديد وفى صحبته مـــدد آخر(٩٥) وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الأخرى أن أسلمت للمنتصر قيـــادها ، فأصبح الطريق مفتوحا الى روما ، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر فى ٢٦ أكتوبر ٣١٢(٩٦) ٠

وأثناء هـــذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين فى السماء ــ ما أخبر به يوساب(٩٧ وهى تلك الهالة المضيئة تحيط صليبا ارتسمت تحت عبـــارة « بهذا ستنتصر TouTw vika ثم زاره السـيد المسيح أثناء نومه مؤكدا له ما سبق أن تراءى له(٩٨) ، وهذه كلها أمور سنتناولها بالدراســـة فى الفصل التالى ٠

كان واضحا أن ماكسنتيوس بعـــد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال ، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها ، وكانت أسوارها منيعة للغاية ، كما أنه كانت لديه كميات وفيرة من قمح أفريقيا ، وقوة من الجند لايستهان بها ، وقوى من هذا الاقتراح عنـــده ما أنبأ به العرافون من أن خروجـــه سيسبب له كارثة فادحة(٩٩) ، غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما أشيع بين الناس القـــول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجـــة لهذه الانتصارات المتتالية ، فانزعج ماكسنتيوس وأمر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب ، فأخبروه أن هنـــاك نبوءة تقـــول أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان ، ولمـــا كان ماكسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة ، فقـــد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش ، ومن ثم فقـــد عزم على أن يقابل عدوه فى هذا اليوم(١٠٠) ، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر(١٠١) ليلتقى بعـــدوه فى

---

(٩٥) Jones, Constatine, p. 76.
(٩٦) Richardson, op. cit. p. 416.
(٩٧) EVSEB. vita Const. I, 28.
(٩٨) Ibid. 29. LACT. mort. pers. 44, SOZOM. hist. eccl. I, 3.
(٩٩) LACT. mort. pers. 44.
(١٠٠) Jones, Constantine, pp. 76-77.
(١٠١) Richardson, op. cit. p. 416.

مكان يسمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفيـــة(١٠٢) Mulvius pons وكانت هذه الخطة التى أقدم عليها ماكسنتيوس جهلا بفنون الحرب ، اذ بدلا من أن يترك لخصمه مشقة عبـور النهر فيسـهل القضـاء عليه ، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة ، فكان عاقبة أمره خسرا ، حيث تمكن قسطنطين من انزال الهزيمة بقواته واجبـارها على التراجع نحـو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم(١٠٣) ، ولمـا حاولت بعض الجموع وعلى رأسها ماكسنتيوس الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الامبراطور ، وهكـذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢(١٠٤) . ويشبه يوساب ما حدث هذا بمـــا كان من أمر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليـم لأنهم ـ كماكسنتيوس من بعـــد ـ عصـــوا أمر الـرب(١٠٥) .

وفى اليوم التالى لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخـول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالى الذين عمد هو منذ البداية الى التودد اليهم ، وفرض بعض العقوبات على أتباع ماكسنتيوس ، وفرق الحرس البريتورى(١٠٦) وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينـــة من قوتهـــا ، وخلـع السـناتو الرومـانى على قسطنطين لقب Maximus (١٠٧) ، بينما استخرجت جثة ماكسنتيوس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بهـا روما حتى يشهدها العامة ، ثم أرسـل بها الى أفريقيا لتقر بتغيير سيدها(١٠٨) .

بهـذا غدت روما وايطاليا وأفريقيا واسبانيا فى قبضـة قسطنطين ، بالاضافة الى غالة وبريطانيا ، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع ، ولكن طموح قسطنطين كان أكبر من أن يتسع له هـذا الجزء . فقنع مؤقتا

---

(١٠٢) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.
(١٠٣) LACT. mort. pers. 44.
(١٠٤) Jones, Constantine, p. 77.
(١٠٥) EVSEB. vita Const. I, 38.
(١٠٦) Richardson, op. cit. p. 416.
(١٠٧) LACT. mort. pers. 44.
(١٠٨) Jones, Constantine, pp. 77-78.

بما جادت به الأيام وانتظر ما تجيء به ، ولم يكن فى انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث ، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للامبراطورية كلها سيدا ٠٠

لم يمكث قسطنطين فى روما طويلا ، فبعد أن تأكد لديه أن الامور قد استقرت غادرها الى ميلانو حيث وافاه هناك ليكين ليتسلم زوجته قسطنديا(١٠٩) ٠ وشهدت المدينة الى جوار الاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هذا البعض من رعايا الامبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواما طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد ، ووضع حد لهذه المشكلة الدامية التى أرهقت السياسة الداخلية للامبراطورية دون أن تفلح هذه فى ايجاد حل لها ، فاتفق الطرفان على اطلاق حرية العقيدة لجميع الرعايا الخاضعين لسلطانهم شريطة ألا يتعارض ذلك مع الصالح العام للامبراطورية(١١٠) وهو الاتفاق الذى شاع عند المؤرخين باسم « مرسوم ميلانو » فى عام ٣١٣ ٠

هذا على حين كان ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ينهج نهجا مخالفا ، فقد كان من أكبر أنصار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس ، بل انه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه(١١١) ٠ فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١ ، لم يكن ماكسيمين راغبا فى اتباعه ، ولذلك فانه بدلا من ارسال نص المرسوم الى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين ، لأنه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده(١١٢) ٠ غير أن سابينوس Sabinus محافظه البريتورى ، وجه رسائل خاصة الى كل حكام الولايات التابعة لماكسيمين جاء فيها :

« سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة التقية السليمة ، وحتى يقدم اولئك الذين يحيون بصورة

---

(١٠٩) LACT. mort. pers. 45.
(١١٠) EVSEB. hist. eccl. X, 5; LACT. mort. pers. 48.
(١١١) LACT. mort. pers. 37, 38; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.
(١١٢) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.

لا تتفق مع الرومان العبادة الواجبة للارباب الخالدين ، ولكن عناد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهبا الى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد أنمله عن مقصدهم رغم ما أعطى اليهم من أوامـــر ، ولا خارت نفوسهم رغم ما توعـدهم من قصاص • ونظرا لأن الكثيرين ـ بمثل هـذا السلوك ـ قـد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فان أصحاب الجـلاله الامبراطرة بسبب ما جلبت عليـــه نفوسهم من نبالة وتقى ، وجـدوا أنه مما يتنافى مع مقصـــد جلالتهم أن يعرضوا ـ نتيجة لذلك ـ أناسا للخطر ، فامـروا خـادمهم الأمين ـ أعنى شخصى لكى أكتب الى فطنتك بأنه لا يجب ازعاج أى مسيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر ، لذلك احرص على أن تكتب لأولى الامر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا اياهم بهذا الأمر(١٣١) » •

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر الى من تعنيهم ، وسعوا بأسرع ما يمكن لاتمام ما حسبوه رغبة الامبراطور الحقة ، فأطلقوا سراح أولئـك المسجونين ، وأعادوا من النفى من كانوا قـد بعثوا بهم الى المناجم لأنهم ، على حـد قول يوساب ، ظنوا خطـأ أن هـــذه هى رغبـة الامبراطور(١١٤) •

على أن ماكسيمين لم يسمح بذلك أكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهـاد المسيحيين ، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى أطاكية يوافق الامبراطور ميـوله فصب جام غضبه على المسيحيين ، واقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر ، وأوعز الى الامبراطور أن الآلهـة أمرت بطرد المسحيين ـ كأعـداء له ـ خـارج حـــدود المدينـة وما جـاورها من أقاليم • وقد أدى نجاحه فى ذلك الى اغراء كل مواطنى المـدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حـــذوه ما دام ذلك يرضى الامبراطور(١١٥) ، ومن ثم انهالت على ماكسيمين رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب اليه

---

(١١٣) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(١١٤) Id.
(١١٥) Ibid. IX. 2-4.

منع المسيحيين من البقاء أو الاقامة داخل أسوار هذه المدن(١١٦) · وقد عين ماكسيمين فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين من بناء كنائسهم أو ممارسة طقوسهم وشعائرهم ، وأمرهم بأن يجبروا المسيحيين على التضحية للالهة ، فاذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم(١١٧) ·وقد حفظ يوساب صورة من هذا الأمر وجدت فى مدينة صور جاء فيه : « أما اذا أصروا ـ المسيحيين ـ على ضلالتهم اللعينة ، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما أردت لكى تستطيع مدينتك ـ اذ تتحرر من كل دنس وكفر ـ ممارسة الشعائر المقدسة للالهة الخالدة(١١٨) ·

غير أنه قبل نهاية عام ٣١٢ عاد ماكسيمين من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد ، فبعث برسالة الى سابينوس ، حاول فيها أن يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وأن يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الاجراءات ، وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وماكسيميان فى اعادة أولئك الذين هجروا عبادة الالهة واعتنقوا المسيحية الى سابق عهدهم عن طريق التأديب العلنى والقصاص ، ويذكر أنه سعى الى تخفيف حدة هذه الاجراءات بعد ما رأى من امكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأدية الخدمات العامة ، فأمر القضاة ألا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة · غير أنه عندما أتى الى نيقوميديا بعد وفاة جاليريوس ، تقدم اليه بعض أهلها يلتمسون منه أن لا يسمح للمسيحيين بالاقامة بين ظهرانيهم ، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى ، فلم ير بدا من اجابتهم لما يريدون ، ولكنه كان يرى ، كما يذكر ، أن الاقناع هو خير وسيلة لاعادة هذا القبيل من الناس الى قدس الأرباب ثانية · ومن ثم فانه يجب أن لا يضار أحد بسبب عقيدته ، بل تترك الحرية الدينية للجميع ، وان كان من المفضل استمالة المواطنين بالنصح والترغيب ، لا العنف والترهيب ، الى عبادة الالهة(١١٩) ·

---

(١١٦) LACT. mort. pers. 36.
(١١٧) LACT. mort. pers. 36.
(١١٨) EVSEB. hist. eccl. IX, 7.
(١١٩) Ibid. IX, 9.

ويذكر يوساب أن ماكسيمين قد كتب هـــذه الرسالة بعـــد اجتماع الامبراطورين قسطنطين، وليكين في ميلانو ، واتباعهما سياسة المسامحة مع المسيحيين ، وأن خوفه منهما كان دافعه الرئيسى لسلوك هذا السبيل(١٢٠) · غير أن هـــذا القـــول لا يمكن التسليم به بداهة ، فمن المعلوم لدينا أن ماكسنتيوس قد هزم في نهاية أكتوبر ٣١٢ ، وأن قسطنطين قـــد مكث في روما بعضا من الوقت نظم فيه شئون أقاليمه الجديدة ، ثم ارتحل في مارس ٣١٣ الى ميلانو حيث قابل ليكين(١٢١) ، وحيث اتفقا على سياستهما ازاء المسيحيين · ولما كان قد جاء في رسالة ماكسيمين هذه الى سابينوس عبارة تقول : « غير أنى لما ذهبت فيما بعـد الى نيقوميديا السنة المـاضية » ، ولمـا كنـا نعـلم من لاكتانتيوس(١٢٢) أن ماكسيمين أتى نيقوميديا عقب وفـاة جاليريوس مباشرة ، ولما كانت هذه الوفاة قد حدثت في مايو سنة ٣١١ ، كانت عبارة « السنة الماضية » التى جاءت في رسـالة ماكسيمين تعنى أن أنه الان في سنة ٣١٢ ، أى قبـل اجتمـــاع ميلانو بأشهر قلائل على وجه الترجيح ومن ثم يحتمل كتابتها قبـــل نهـاية عام ٣١٢ ، اذ أن ماكسيمين أصدر بعـد هزيمته أمام ليكين في هرقليا عام ٣١٣ ، وفراره الى نيقوميديا مرسوما في صالح المسيحيين جاء فيه : « أرسلت رسائل في العـام الماضى الى حاكم كل مقاطعة نأمره فيهـا بالسماح لكل فرد بتأدية شعائره الدينية أيا كان نوعها وبلا عائق » وهذه اشارة صريحة الى رسالته لسابينوس ·

وعلى هـذا الأساس يمسى دافع الخوف الذى يسوقه يوساب محركا للامبراطور على انتهاج هذا السبيل ، لغوا · فما الذى أجبر ماكسيمين على أن يغير من سياسته ؟

يذكر البعض(١٢٣) أن ماكسيميان شعر بتأنيب الضمير نتيجة سياسة الاضطهاد التى انتهجها حيال المسيحيين ، وتحول هذا الشعور الى احساس بالخوف من ذلك الاله الذى اياه يعبد المسيحيون ، بعد أن هزم على يد ملك

---

(١٢٠) EVSEB, hist. eccl. IX, 9.
(١٢١) Gibbon, op. cit. I, p. 459.
(١٢٢) LACT. mort. pers. 36.
(١٢٣) Jones, Constantine, pp. 87 - 88.

أرمينا المسيحى سنة ٣١٢ ، وبعد أن تعرضت أقاليمه لمجاعة طاحنة وطاعون فتاك ، ومن ثم أقدم على هذا الاجراء • على حين يرى آخر أن الظروف السياسية التى أحاطت بماكسيمين هى التى دفعته الى ذلك(١٢٤) • ونميل الى الأخذ بهذا الرأى ، ذلك أن ماكسيمين أدرك حرج موقفه بعد الهزيمة السريعة الفادحة التى لحقت بحليفه ماكسنتيوس وأدرك أن انتصار قسطنطين تدعيم لمركز رفيقه ليكين ، ومن ثم استشعر الخطر من هذه الأحداث ، وأدرك أن الحرب بينه وبين خصمه ليكين أضحت وشيكة الوقوع ، ولما كان غالب رعاياه فى الولايات الشرقية التى يسيطر عليها من المسيحيين المضطهدين ، فقد أراد التقرب اليهم علهم يكونون عونا له فى هذا الصراع ، أو حتى على أقل تقدير ليضمن عدم ممالأتهم لعدوه وثورتهم أثناء انشغاله فى هذه الحرب مما يهدد كيانه بخطر جسيم • خاصة وأنه كان يتوقع تفوق قوات عدوه عليه اذا ما انضمت جيوش قسطنطين الى ليكين •

كانت الحرب بين ماكسيمين وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وأن هذا الأخير لم يكن قد أشرك فى أى جزء من الأقاليم التى غنمها مؤخرا قسطنطين ، بل ترك ليمد نفوذه هو الاخر على حساب جاره ماكسيمين(٢٥) ، ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه ، فقد كان لا يقنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها(١٢٦) • وكادت الحرب أن تنشب بينه وبين ليكين عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ الى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة •

كانت خطة ماكسيمين تقوم على أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة ، مما يجعل ليكين يدفع بقواته لمناصرة حليفه ، وبهذا تسنح الفرصة لماكسيمين ليهاجم أقاليم جاره أثناء خلوها من

---

(١٢٤) McGiffert, op. cit. n. 18 p. 364.
(١٢٥) Boak, op. cit. p. 431.
(١٢٦) Jones, Later Roman Empire, I, 79.

القوات(١٢٧) ·ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى غير ما كان يهوى فؤاده ، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة أخذت من اليـــوم بعضه انقشع غبارها عن ابتلاع التيبر لماكسنتيوس وجنـوده ، وما هـو الا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين ، فهلل أهلوها ورفعه السناتو مكانا عليا ، ثم لم تكن الا أشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميـــلانو يرسمان للمستقبل سياستهما ، ويدشنان تآلفهما بحفـــل زواج ليـكين وقسطنديا ، ودخل فى روع ماكسيمين أن فى خطتهما للمستقبل نهايته ، وأن فى انشغالهما بهذا العرش فرصته · ومن ثم صمم على أن يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع الى الأبد ·

يصحبنا لاكتانتيوس(١٢٨) فى ركاب جيش ماكسيميان منـــذ تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القســـوة ، واستطاع بصعوبة بالغة الوصول الى بيثينيا بعد أن أنهكت قواه وفقد منه عـــدد كبير ، حيث كانت أشلاؤه مبعثرة على طول الطريق ، وكان ذلك ــ على حـــد قوله ــ اشعارا بكارثة محققة فى هذه الحـرب المقبلة ، ورغم ذلك لم يتوقف ماكسيمين ، بل واصل زحفـه عابرا البسفور الى تراقيـا ، واقتـرب فى سلوك عدائى من أبواب بيزنطة التى كان ليكين قد ترك بها حامية لتصـــد أى هجوم قد يفكر فيـه ماكسيمين · وقـد حاول هـذا استمالة الحامية أول الأمر عن طريق الاغراء بالمنح والعطايا ، ولكن هـذه الخطة لم تفلح ، فاستبدلها بالعنف ، وفرض على المدينة حصاره الذ ىاستمر أحد عشر يوما ، سلمت المدينة على أثرها حيث لم تقو على مجابهة الحصار · ولم يضع ماكسيمين وقتا ، فسار مباشرة الى هرقليـا وأخضعها لسلطانه ، ولكنه لم يبتعد عنهـا بأكثر من ثمانية عشر ميلا حتى وافته الأنباء بأن ليكين قد خرج اليـــه من أدريانوبل Adrianopolis وكان قد جاءها عـى عجل من ميلانو بعـد أن سمع بأنباء هجوم ماكسيمين · وقد راح ليكين يلتقط ما تصل اليه يداه من الجنـود من هنا وهناك ، وتقدم نحو عدوه ليمنعه من التقدم « دون أن يكون له فى الحرب رغبـة أو فى النصر أمـل » كما يقول لاكتانتيوس(١٢٩) ، معللا ذلـك بأن

---

(١٢٧) Jones, Constantine, p. 84.
(١٢٨) LACT. mort. pers. 45.
(١٢٩) Id.

ماكسيمين كان يمتلك جيشا يربو على سبعين ألف مقاتل ، بينما لم يكن لدى ليكين سوى ثلاثين ألف رجل ، ولم يستطع قسطنطين أن يمد لحليفه يد العون حيث استدعى من ميلانو في نفس اللحظة ليرد عدوانا على الراين شنته قبائل الفرنجة(١٣٠) ٠

التقى الجيشان قرب هرقليا Herraclia وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع ، يقول لاكتانتيوس(١٣١) ان ماكسيمين قد نذر لان أظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحيين ، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرناه عن الخطة التى اتبعها ماكسيمين للتودد الى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى أصدره فى شتاء ٣١٢/٣١٣ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد، ولم يكن ماكسيمين من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعوب جزء كبير من رعيته وهو على أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه ٠ أضف الى ذلك أيضا أن ما أقدم عليه ماكسيمين بعد هزيمته أمام ليكين ازاء المسيحين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار ٠

واذ جعل لاكتانتيوس اعتماد ماكسيمين على جوبتر ، فلابد أن يعتمد ليكين على قوة الهية مضادة ، ولما كان قد اتفق وقسطنطين فى ميلانو على منح المسيحيين حرية العقيدة ، فقد أخبرنا كاتبنا أنه قد ظهر له أثناء نومه ملاك الرب واستحثه على النهوض مسرعا وترتيل صلوات معينة للاله الأعلى ، ووعده بأن النصر فى جانبه اذا ما نفذ ذلك ، وهب ليكين من غفوته وأيقظ مستشاره الذى كان بجواره وعلمه كيف يصلى ، ثم استدعى اليه أحد خاصته وأملى عليه تلك الصلوات وأمره أن يعطيها قواد جيشه ليرددوها والجند من ورائهم ، فتعالت صيحاتهم مرددة :

« أيها الاله العلى ٠٠ اليك نضرع ٠٠ أيها الرب المقدس اياك ندعو ٠٠ فيك نرى كل عدالة ، ومنك نستمد كل أمن ، واليك نكل أمر امبراطوريتنا ٠

---

(١٣٠) Gibbon, op. cit. I, p. 459.

(١٣١) LACT. mort. pers. 47.

بك نحيا ، وبقدرتك ننتصر ، اللهم ياذا القداسة والمهابة • تقبل دعاءنا ، اليك نبسط أكفنا ، فاستمع لنا ياذا العظمة والجلال(١٣٢) » •

ويبدو أن حمـاس لاكتانتيوس للمسيحية ، وشديد بغضـه لماكسيمين لمـا أوقعه بالمسيحيين فى أقاليمه من اضطهاد ، قد أنساه ذكر قوله فى أول الأمر من أنه لم يكن لدى ليكين أى رغبة فى الحرب أو أمل فى النصر ، فهو يخبر الان(١٣٣) أن ليكين أراد أن لا تحدث المعركة الا فى أول مايو ، وهو اليوم الذى يوافق تمام السنة الثامنة من حكم ماكسيمين ، حتى يحطمه فى يوم عيد جلوسه على العرش ، كما فعل قسطنطين مع ماكسنتيوس من قبل ، غير أن لاكتانتيوس لا يجد رهقا فى تقـديم تعليل لذلك ، فقد امتـلأ ليكين وجنده حماسة بهذه الأدعية التى جاءته فى نومه وحيا ، هـذا على حين كان ماكسيمين يتوق الى أن تنشب المعـركة فى اليوم الأخير من أبريل حتى يحارب فى اليوم السابق على توليه السلطة ، فان كان النصر حليفه جعل غداته أسعد أيامه •

وفى ٣٠ أبريل ٣١٣ التقى الجمعان ، فتحقق لماكسيمين بذلـك بعض ما كان يبغى ، غير أن أمله فى النصر لم يأته أبدا ، ففى معركة خاطفة هزم ماكسيمين هزيمة ساحقـة ، ولم تختلف معركة هرقليا عن موقعة الصخور الحمراء من حيث نتائجها الا فى شىء واحد هو فرار ماكسيمين على حين غرق ماكسنتيوس •

ومع ما قاله لاكتانتيوس عن انتصار ليكين ودواعيه ، فقد كان طبيعيا أن يلقى ماكسيمين الهزيمة ، وقد أخبرنا الكاتب نفسه أن جيش هـذا قد فقد عددا ليس باليسير من أفراده ، وأن أشلاءهم تبعثرت من خلفهم ، وأن قوى هذا الجيش قد أنهكت طيلة هذه الرحلة خـلال الشتاء القارص ، ثم يعلق بقوله « وكان ذلك اشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة » •

ولنا أن نتصور تلك الفترة الوجيزة التى استغرقتها هذه الرحلة من سوريا الى تراقيا ، فاذا علمنا أن التقاء الحليفين ليكين وقسطنطين تم فى

---

(١٣٢) Id.
(١٣٣) LACT. mort. pers. 47.

ميلانو فى مارس ٣١٣ ، وأن موقعة هرقليا كانت فى ٣٠ أبريل من نفس العام ، ادركنا مدى السرعة التى كان جيش ماكسيمين يسير بها ليقطع هذه المسافة الطويلة عبر شمال سوريا فآسيا الصغرى فالبسفور الى تراقيا ، اضف الى ذلك مقاومة بيزنطة وهرقليا ، فاذا اضفنا الى هذا كله عدم ملاءمة الأحوال الجوية عندئذ ، تأكد لدينا صعوبة الظروف التى تهيأ فيها جيش ماكسيمين للقتال ، ويؤكد هذا ما يذكره لاكتانتيوس نفسه فى قوله : « ٠٠ ولما تأكد لدى دازا (ماكسيمين) أن الامبراطورين مشغولان فى حفل الزواج ، تدرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة »(١٣٤)٠ ومن ثم كان لنا أن ندرك الاعياء والحالة المعنوية السيئة التى كان عليها جيش ماكسيمين ، ولم يكن التفوق العددى ليغنه شيئا عن خسارته الجسمانية والنفسية ٠

استطاع ماكسيمين أن يفر بنفسه من هذه المعركة ، وتبعه عدد من جنده ، ويعلق البيانى الأفريقى على ذلك بقوله : « لم يصبح من العار أن يهرب من أراد النجاة »(١٣٥) اذ أن الامبراطور نفسه قد ضرب لهم المثل ٠ وقبل ان تغيب شمس اليوم الأول من مايو كان ماكسيمين قد وصل الى نيقوميديا على الرغم من أن المسافة بينها وبين أرض المعركة كانت تزيد على مائة وستين ميلا(١٣٦) ، ويعلق جيبون على ذلك ساخرا : « ان السرعة المذهلة التى استخدمها ماكسيمين فى هروبه لجديرة بالتمجيد أكثر من جرائه فى المعركة(١٣٧) ٠

حالما وصل ماكسيمين الى نيقوميديا أراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم الى جواره فى معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكين ، فأصدر مرسوما فى صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه ، وأنه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبوا عديدا من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التى

---

(١٣٤) LACT. mort. pers. 45.
(١٣٥) Ibid. 47.
(١٣٦) Id.
(١٣٧) Gibbon, op. cit. I, p. 460.

كان قـــد أصدرها دقلديانوس وماكسيميان لتحريم اجتماعات المسيحيين ، ونلاحظ أنه يلقى بالتبعية كاملة هنا وفى رسالته السابقة الذكر الى سابينوس على هـــذين الامبراطورين ، ويستصرد فى مرسومه موضحا انه نتيجة ذلك عمـــل على تخليص هـــؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين ، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته الى سابينوس وما جاء فيهـــا من حـــرية العبـــادة للمسيحيين ، ولكن قضـته وموظفيه ـ على حد قوله ـ حرفوا هذه الأوامر ، لذلك رأى أن يذيع أمرا امبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه ، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبـــادة ، كما أمر برد الكنائس المصادرة الى ملكيتها المسيحية(١٣٨) . غير أن ذلك كله لم يجده نفعا ، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته فى هرقليا ، واضحت جهـــوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لا جدوى وراءها .

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمين وبصحبته أهله ، وفى معيتـــه بلاطه ميمما شطر سوريا ، ولكنه توقف فى كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الامبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره(١٣٩) . فكان ذلك ايذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكين ، وكان هذا قد وصل الى نيقوميديا ، وبعث فى ١٣ يونية ٣١٣ رسالة الى حاكم بيثينيا(١٤٠) ، وهى الرسالة التى ذاعت فى التاريخ خطأ باسم مرسوم ميلانو .

تقهقر ماكسيمين حتى وصـــل الى طرسوس Tarsus وتحصن بها ، ولكن عاجلته المنية(١٤١) ، فوضع موته المفاجىء فى هـــذه اللحظة ليكين سيدا على الولايات الشرقية(١٤٢) . وهكذا أصبح فى الحكم امبراطوران ، ليكين فى الشـــرق ، وفى الغـــرب قسطنطين . وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخـــل الامبراطورية قد بقيت لم تطو بعـــد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين . ويقول جيبون فى هذا الصدد ، لقد كان المتوقع

---

(١٣٨) EVSEB. hist. eccl. IX, 10.
(١٣٩) LACT. mort. pers. 47.
(١٤٠) Ibid. 48.
(١٤١) Ibid. 49.
(١٤٢) Cary, op. cit. p. 735.

أن يكون الاعياء الذى حل بالامبراطورين الظافرين نتيجة الحروب الاهلية ، والارباط الذى كان قائما بينهما ، مدعاة لأن يطلقا أو على الأقل يكبحا جماح نزوات الطموح ، غير انه لم يكد ينقضى عام على وفاة ماكسيمين حتى شهر الخليفان سلاحهما كل فى وجه صاحبه(١٤٣) ، ذلك أن وضع الامبراطورين كان يحتم على كل منهما النزاع من أجل تفوق أحدهما على الاخر واستئثاره بالسلطة(١٤٤) ٠

ربما كان ليكين راغبا عن الدخول فى حرب ضد حليفه ، قانعا باقليمه ذلك المتسع الذى يمتد من حدود أرمينيا شرقا حتى بحر أدريا غربا ، يدلنا على ذلك استقراء تاريخه العسكرى منذ عينه جاليريوس أوغسطسا عام ٣٠٧ حتى سنة ٣١٢ عندما شبت الحرب بينه وبين ماكسيمين ٠ فعلى الرغم من انه سيطر على اقليم بانونيا الى أن يتم استعادة المنطقة التى اغتصبها ماكسنتيوس ، الا أنه لم يحرك ساكنا فى سبيل الزام خصمه على التخلى عنها ، وتركه يثبت أقدامه ويقوى نفوذه فى ايطاليا واسبانيا وافريقيا وقبع هو فى بانونيا ، ولما مات جاليريوس وأصبح وماكسيمين لا يفصل بينهما الا البسفور ، أثر السلام مكتفيا بما وصلت اليه سلطته الان ٠ ولم يحاول مطلقا بعد هزيمة ماكسنتيوس ، المطالبة ولو بجزء من هذه الأراضى الشاسعة التى كانت تعد قانونا من أملاك ليكين نفسه حسب القرار الذى اتخذه دقلديانوس وماكسيميان وجاليريوس فى مؤتمر عام ٣٠٧ ، ولم يكن ليكين هو الذى أشعل الحرب مع ماكسيميان ، بل كان « غير راغب فى الحرب ، بلا أمل فى النصر » ٠ ولكن الأقدار ساقت له جيشا متهالكا ، وأهدت اليه غنم معركة خاطفة ، وزينت جبينه بأقاليم الشرق ، وأزاحت بيدها ـ لا بيده ـ ماكسيمين من طريقه ، فغدا بلا كبير عناء سيدا على أعظم مناطق الامبراطورية خصبا وثراء ٠ ذلك شىء يجعل الشك حول رغبة ليكين اذكاء نيران حرب جديدة أمرا واقعا ٠

ولكن ليكين كان يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين ، فقد كان يدرك

---

(١٤٣) Gibbon, op. cit. I, p. 463.
(١٤٤) McGiffert, op. cit. n. 1 p. 384.

تماما مبلغ طموح هـذا الرجل منـذ عرفه قيصـرا ، فامبراطورا شريكا ، فحليفا ، وكان فى سياسة قسطنطين قبـل ماكسيميان وولده دليل واضح على نياته ، مما زاد الشكوك فى صدر ليكين ، وذهبت به الظنون كل مذهب ، وقويت هذه لديه بما أتت به الأحداث ، فاقدم على ارتكاب عـدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها ، فأضحى على اثرها سيد الامبراطورية ٠

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه واحقـاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال حليف الأمس ، فقد كانت قوته ترتكز أساسا على جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا واقلها سكانا(١٤٥) فى الوقت الذى كان فيـه ليكين يحوز اقليم الليريا الذى طالما قـدم للجيش الرومانى أقوى الرجال(١٤٦) ، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية ، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الاقليم من اهميـة بالنسبة لمشروعاته القادمة ، ومن ثم عول على أن تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب ٠

ولما كان قسطنطين قـد استدعى الى غالة عقب اجتماع ميلانو لردع تحركات الفرنجة هنـاك فانه فـكر فى اقامة مناطق حاجزة بينـه وبين ليكين(١٤٧) على غرار نظـام القياصـرة الـذى كان دقلديانوس قـد ابتدعه(١٤٨) ٠ فأراد تعيين باسيانوس Bassianus زوج اخته اناستاسيا Anastasia قيصرا ، وطلب الى ليكين الموافقة على ذلك ٠ وقـد أدى هذا الاقتراح الى حدوث نزاع بين الامبراطورين(١٤٩) ٠ ويقول جيبون أن ليكين قد وافق فى النهاية على هذا الاقتـراح محاولا استغلال الظروف لصالحه بالدخول مع هذا القيصر فى تحالف ضد قسطنطين(١٥٠) ، وقد بنى جيبون والمؤرخون المحدثون رأيهم هذا ، وما ترتب عليه من اعتبار ليكين المسئول عن اندلاع الحرب الأولى بينه وبين قسطنطين ، على ما ذكره يوساب(١٥١)

---

(١٤٥) Cantor, op. cit. p. 4.
(١٤٦) C.M.H. I, p. 6.
(١٤٧) Gibbon, op. cit. I, p. 463
(١٤٨) Boak, op. cit. p. 431.
(١٤٩) Jones, Constantine, p. 126.
(١٥٠) Gibbon, op. cit. I, p. 464.
(١٥١) EVSEB. vita Const. I, 50.

من وجـود مؤامرة تستهدف القضاء على قسطنطين دبرها سنكيو Senecio الذى كان فى خـدمة ليـكين بالاشتراك مع أخيـــه باسيانوس زوج أخت قسطنطين ، غير أن هذا الأخير استطاع أن يقضى على المؤامرة فى مهدها ، وأن يقدم للاعـدام صهره ، ثم طلب من ليكين أن يسلمه سنكيو ، فلما رفض وجد قسطنطين فى ذلك ذريعة لشن الحرب ٠

واذا جاز أن نعتبر هـذه المؤامرة ـ أن صحت رواية يوساب ـ سبب الحرب الأولى ، الا أنها لم تكن كل السبب ، فقـــد ذكرنا ما كان يعتمل فى نفس قسطنطين من حقد دفين سببه سيادة زميله على مناطق أكثـــر غنى ورخاء من تلك التى فى قبضته ، وستدعم الأحـــداث بعد قليل ما نذهب اليه ٠ هذا بالاضافة الى ما نعرفه عن أخلاق ليكين وعدم حبـه للمغامرة ٠

أوقع قسطنطين بالفرنجة على الراين هزيمة ساحقة ، ومكث فى تريير Trier (تريف) Augusta Treverorum حتى نهاية صيف عام ٣١٤ حيث تحرك بقـوة يبلغ تعدادها عشرين ألف مقـاتل لغزو أقاليم ليكين الذى كان فى حوزته ٣٥٫٠٠٠ جندى ، ورغم هذا التفوق العددى الا أن الهزيمة لحقت به فى Cibalae بين الساف والدراف(١٥٢) ، فى الثـامن من أكتوبر ، فارتد الى سرميوم Sirmium التى تبعد عنهـــا بخمسين ميـلا ومنهـا الى داشيا ، فتبعه قسطنطين محتـلا سرميوم(١٥٣) ولحق به فى وادى ماريديا Maldia فى تراقيـا حيث دارت رحى معركة أخرى لم تكن أقـــل من سابقتها عنفا وضراوة ، أيقن ليكين بعد هزيمته فيها أن لا أمل له فى النصر ، فأرسل من قبله مندوبين للتفاوض مع قسطنطين(١٥٤) ، وفى ديسمبر ٣١٤ عقـــدت بين الخصمين معاهـدة تنازل ليكين بمقتضاها لقسطنطين عن كل أقاليمه فى أوروبا عدا تراقيا ، واحتفظ لنفسه بهذه وما وراء البسفور(١٥٥) ، وبهذه المساحة الضخمة المليئة بالمال والرجال والتى فقدها ليكين ألقى الحظ

---

(١٥٢) F. Jackson, The history of the Christian Church, p. 295.
(١٥٣) Jones, Constantine, p. 127.
(١٥٤) Gibbon, op. cit. I, pp. 465-466.
(١٥٥) Id.

بثقله فى كفة قسطنطين(١٥٦) ٠

وهكذا تحقق لسـيد الغرب ما أراد فى السيطرة على اقليم كان فى مسيس الحاجة اليـه ليدعم به قواته ونفوذه ، ولقد أخذ يزداد بوضوح أن قسطنطين ما كان ليقنع أبدا بذلك الجزء الكبير من الامبراطورية ، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يتعجل الأمور ويستحث خطاها ، فقد اكتفى مؤقتا بهذا النصـر الساحق وتلك المكاسب الضخمة التى حققها مؤجلا ضربته الأخيرة ليوم تصبح فيه قاضية ٠

وقد أعطى ليكين بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله ، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو ، وحظى المسيحيون ورجـال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسـلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة ، لم يحاول ليكين أن يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية ٠ ومع أنه حتى عـام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين ، الا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحـدة نحو كسب صـداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعـل قسطنطين(١٥٧) ٠ ونتيجة هذا كان مسيحى الشرق ينظرون بعين الحسـد والغيرة الى زملائهم مسيحى الغرب لمـا يتقلبون فيه من نعم أغدقتها حكومة قسطنطين ، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليـكين المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب ، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه فى قسطنطين « محبوب الرب » ، فتعاطفت معه قلوبهم ، فوجد انعدام الثقة بذلك بابا نفذ منه بين ليكين وشعبه ، فأعتبروه مضطهدا جـديدا ، وعدهم هو صنائع قسطنطين(١٥٨) ٠

ويقدم يوساب صورة لموقف ليكين قبل المسيحيين ٠ فبعد أن اتهم ممثلى الرب ـ الأساقفة ـ بالاتصال بقسطنطين ، حرم عليهم عقـد الاجتماعات ، ومنعهم من الانتقال أو زيارة الأسقفيات المجاورة(١٥٩) ، ثم صادر كثيرا

---

(١٥٦) Cary, op. cit. p. 733.
(١٥٧) McGiffert, op. cit. n. 5 p. 384.
(١٥٨) EVSEB. hist. eccl. X, 8.
(١٥٩) EVSEB. vita Const. 1, 51.

من الأملاك الخاصة بالكنائس والافراد وضمها الى أملاكه(١٦٠) ، ونهى المسيحيين عن عقد اجتماعاتهم داخل أسوار المدن ، والا يجتمع الرجال والنساء فى الكنائس فى وقت واحد(١٦١) ، وأصدر أوامره بطرد الجنود والموظفين اذا ما رفضوا أن يقربوا للأرباب ، وسجن باقى المسيحيين الذين يأبون اطاعة هذه الأوامر وحرمانهم من الطعام فى السجن حتى يدركهم الموت جوعا(١٦٢) ، وبلغ اضطهاد المسيحيين درجة كبيرة فى آماسيا Amasia فى بنطس Pontus حيث سويت بالأرض عدد من الكنائس(١٦٣) ٠

لكن على الرغم من كل ذلك فان اضطهاد ليكين لم يأخذ صورة العنف التى شهدتها الاضطهادات السابقة ، ومن الأدلة على ذلك أن يوساب أسقف نيقوميديا وكثيرين غيره من رجال الاكليروس ظلوا كأصدقاء له وظلت معاملته لهم حسنة كما كانت(١٦٤) ٠ ويضاف الى هذا أن ليكين لم يصدر مرسوما عاما ينص على اضطهاد المسيحيين ، وانما كل ما حدث هو بعض من النفى والسجن والمصادرات ، ويبدو أن قلة قليلة من الأساقفة تعرضت للموت ، ولكن ليس هناك ما يدعو الى القول بأنهم تعرضوا لذلك نتيجة لأوامر ليكين نفسه(١٦٥) ، فمن المرجح أن يكون ذلك راجعا الى تعصب بعض الموظفين الوثنيين الذين انتهزوا فرصة الشعور العدائى ضد المسيحيين ، بحجة أنهم على اتصال بقسطنطين ، لانتهاك حرمة القوانين الموجودة ، ولوضع بعض الأساقفة المكروهين لديهم تحت طائلة العقاب بحجة أو بأخرى كما يخبرنا بذلك يوساب نفسه(١٦٦) ، الا أن هذه الحوادث كانت نادرة ولم يؤثر أنه حدثت مذابح جماعية للمسيحيين(١٦٧) ٠

---

(١٦٠) Ibid. 52.
(١٦١) Ibid. 53.
(١٦٢) Ibid. 54; hist. eccl. X, 8.
(١٦٣) EVSEB. vita Const. II, 1; hist. eccl. X. 8.
(١٦٤) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384 - 385.
(١٦٥) Id.
(١٦٦) EVSEB. hist. eccl. X, 8; vita Const. II, 2.
(١٦٧) McGiffert, op. cit. n. 5, ppp. 384 - 385.

وعلى هذا النحو لم يكن غريبا أن يذكر يوساب أن قسطنطين تقدم بجيوشه لينقذ هذا الجزء من رعية المسيح من سطوة هذا الطاغوت مثلما فعل من قبل مع أهل روما ضد ماكسنتيوس(١٦٨) ٠

لقد كانت السياسة التى أقدم عليها ليكين خطوة غاية فى الحماقة يمكن أن يقدم عليها انسان فى مثل تلك الظروف الحرجة ، فقد كان فى وقت يحتاج فيه لولاء وعطف كل رعاياه ، ولكنه بطيشه استغنى عن جزء كبير وهام منهم وأعطاهم بهذا العمل سببا لا غبار عليه ليصبحوا من أشد المتحمسين لخصمه(١٦٩) ، وقد عرف هذا الخصم كيف يستفيد تماما من هذا الخطأ ٠

ولقد ساهم قسطنطين بنفسه فى اثارة الشكوك لدى ليكين ومخاوفه من جموع المسيحيين فى أقاليمه ، فقد قضى قسطنطين الستة أشهر الأولى من عام ٣١٥ يتفقد أقاليمه الجديدة فى البلقان ، ثم زار روما فى عجالة ومنها الى غالة ، وفى خريف سنة ٣١٦ تحرك ثانية الى البلقان ولم يغادرها بعد ذلك الا مرة واحدة زار فيها ميلانو ، وهكذا مكث فى البلقان طيلة ثمان سنوات ، ولا شك أن قربه من أقاليم خصمه ، وسياسته التى جرى عليها فى معاملة المسيحيين فى اقليمه ، كان لها أكبر الأثر فى شعور مسيحيى الشرق ونفس ليكين ٠

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الامبراطورية منفردا ، ولما آنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١ ، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكن ، فأعلن ولديه كريسبوس Crispus وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكين(١٧٠) ٠ وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماثيين Sarmatians (١٧١) ، وقام بهجوم ضخم

---

(١٦٨) EVSEB. vita Const. II, 3; hist. eccl. X, 9.
(١٦٩) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384 - 385.
(١٧٠) Jones, Constantine, p. 129.
(١٧١) Hefele, Histoire des Conciles, I, 1, p. 381.

على القوط سنة ٣٢٣ ،واقتضاه تتبع القوط اجتياز اقليم تراقيا الخاضع لليكين ، فلم يستطيع هـــذا أن يكظم غيظـه أكثر من ذلك ، فاحتج لـــدى قسطنطين على انتهاك حرمة أراضيه ،ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التى كان يبحث عنها منذ أمد طويل ، فرفض أن يقـدم ترضية ما لزميله(١٧٢) ، فأعطى ذلك اشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة ٠

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب ، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعـد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكين ، أو على الأقـل تخليهم عن نصرته ، وبالطبع كانت هذه فى حد ذاتها ــ أعنى رغبته فى نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت اضطهاد ليكين ــ هى الحجة التى تذرع بهـا ووجـدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب ، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين فى الشرق وتعاطفهم معه ، ومن هذا السياق يتضح أن قسطنطين كان هو البادىء بالعدوان فعلا فى هذه الحرب ، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان ، ومن ثم فما يقدمه يوساب فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد حجة واهية اذا قيست بالدوافع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الامبراطورية ٠

كان ليكين يتفوق على عدوه هذه المرة أيضا، ولكن هـــذا التفوق لم يجده نفعا ، فقد كان لديه ١٥٠٫٠٠٠ من المشاة ، وخمسة عشر ألف فارس من أحسن فرسان فريجيا Phrygia وكبادوكيا Cappadocia، بينما لم تزد قوات قسطنطين فى مختلف الأسلحة عن مائة وعشرين ألف جندى ، ولكنهم كانوا يفوقون خصومهم بتمرسهم فى شئون الحرب بصفة مستمرة(١٧٣) ٠

وعند أدريانوبل (حاليا ادرنه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكين أول هزيمة فى هذا الصراع ، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على حيزنطة وتمـكن من أن يحقق نصـرا بحـــريا كبيرا على أســـطول خصمه(١٧٤) ، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس

---

(١٧٢) Boak, op. cit. p. 342.
(١٧٣) Gibbon, op. cit. I, p. 417.
(١٧٤) Burckhardt, op. cit. p. 281.

Chrysopolis حيث فقد ليكين كل شيء ، وأسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه الى تسالونيكا ، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى(١٧٥) ٠

وهكذا قدر لحرب أهليةطويلة أن يخمد أوارها ، وأن تشهد الامبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه امبراطور فرد . وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها يداه فى الغرب الأوروبى ، وحق لمادحه بوساب(١٧٧) أن يتغنى بذلك قائلا : « وهكذا استطاع قسطنطين البطل الظافر الذى يرفل فى ثياب الفضيلة والتقى ، وابنه كريسبوس الأمير محبوب الرب ، الذى فى كل شيء يماثل أباه ، استطاعا أن يستردا الشرق ، ويؤسسا امبراطورية رومانية واحدة موحدة مخضعين لرحيم حكمهما العالم كله من مشرق الشمس الى مغربها » ٠

---

(١٧٥) EVSEB. vita Const. II, 17; hist. eccl. X, 9.

(١٧٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 4; SOZOM. hist. eccl. 1, 7.

(١٧٧) EVSEB. hist. eccl. X, 9.